الشعر الأندلسي (بداياته وأغراضه التقليدية)

التمهيد

البيئة الأندلسية وطبيعتها

أولاً : لمحة جغرافية عن بيئة الأندلس

ثانياً : الأندلس إطلالة تاريخية

ثالثاً : المجتمع الأندلسي

رابعاً : الحياة الفكرية في الأندلس وانتشار اللغة العربية

أولاً : لمحة جغرافية عن بيئة الأندلسس وطبيعتها :

الأندلس (أيبيريا) : شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من قارة أوروبا ، وتتصل براً بأوروبا من الجهة الشمالية الشرقية ، ويفصلها عن فرنسا سلسة جبال (آلبرت) أو (البرانس) ، أما الجهات الأخرى فتحيط بها المياه، فيحدها المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) من الغرب ، وأما من الشرق فيحدها البحر المتوسط (بحر الروم) ، ومن الجنوب مضيق جبل طارق الذي يفصلها عن القارة الأفريقية وقد دخلها العرب عام ٩٢هـ –٨٩٨ مـ أو ٧١١هـ– ١٤٩٢م ودام حكم العرب في الأندلس ما يقارب ثمانية قرون .

تسمية الأندلس :

أطلقوا عليها اسم أيبيريا لأن سكانها الأَصليين هم الأيبيريون ، وأيضاً اسم الأندلس أطلقه العرب بعد فتحها لما رأوه من إحاطة الماء بأكثر جهاتها ، وهو يقابل أيضاً ما اصطلح على تسميتهَ أَسبانيا المسلمة.

تسعد الأندلس بطبيعة جميلة ساحرة ، جبال تتدرج عليها أنواع الزروع ، وأرض خصبة يكسوها الشجر، والزهر ، والثمار اليانعة ، وألوان التمر وأنهار متعددة غاية في الجمال منها نهر الوادي الكبير الذي يمر بقرطبة ثم يخترق أشبيلية ، ونهر شقر الذي يصب في البحر المتوسط ، وفي الشمال نهر وادي يانة ونهر التاجه ، ونهر دويرة ومن مدنها الكبرى : مرسية وأوريولة ودانية ، وشاطبة ، وبلنسية ، وطرطوشة و طركوزة ، وبرشلونة وسرقسطة ، وأشبيلية ، وماردة ، ولشبونة ، وشلب.

يذكر المؤرخون أن العرب قد قضوا معظم وقت وجودهم في جنوب الأندلس ثم في السهول الشرقية والغربية وهذه أكثر مناطق الأندلسس خصبا وعطاءً .

وأطنب الشعراء في وصف جمال البلاد والتغني بسهولها وحدائقها ومياهها وثمارها وأطيارها كمثل قول ابن خفاجة :

يـــا أهـــل أنـــدلس لله دركـــمُ

مـــــا ر و ظـــلٌّ و أشـــجار و أنهـــارُ

مـــا جنـــــة الخلد إلا في ديـــاركمُ

ولـــو تخيّرتُ هـــذي كنـــتُ أختـــارُ

ثانياً : الأندلس ، إطلالة تاريخية

الأندلس قبل الفتح العربي :

تألف سكان إسبانيا في العصور القديمة من عنصري "الكلت و الأ يبيرين" ثم تعرضت لتأثرات آسيوية وأوربية على السواء من خلال المستعمرات إلى أقامتها على سواحلها الدول البحرية المتوسعة في البحر المتوسط وقد كون الإغريق والفينيقيون بعضاً منها ثم ورث عنهم مركزهم القرطاجيون نسبة إلى قرطاجة ، وقد شهدت إسبانيا صراعاً بين الرومان والفينيقيين أسفر عنه سيطرة الرومان ما يقرب من سبعة قرون في ظل اعتناق الديانة المسيحية ، بعدها ضعفت الدولة الرومانية واجتاحت الأندلس موجات من البرابرة الجرمان ومنهم قوة جرمانية جديدة هي قوة (القوط) من أشهر ملوكهم دوق قرطبة (رودريغو) الذي يسميه العرب لوذريق ، وتصف بعض المصادر لوذريق بأنه كان شجاعاً وكان حزبه يتألف من الرومانيين ورجال الكنيسة الكاثوليك وقد استطاع أن يستميل إليه بعض كبار الرجال ، كما تمكن من أن يضرم الثورة في قرطبة ، فَتوج ملكاً فيها وكان لوذريق تقيم في القصر الذي أسماه العرب بلاط لوذريق غير أنه مال إلى اللهو وزاد الضرائب على الأهالي ونقم عليه ابناء البلد ، وتروي المصادر أن البلاد أصابها في السنوات الثلاث الأخيرة مجاعة ساهمت بضعف البلاد فأصابهم وباء أودى بحياة الكثيرين من سكانها كما أن لوذريق قلت موارده بسوء إدارته فَمد يده إلى كنوز الكنائس الشهيرة الأمر الذي أثار عليه حفيظة الكثيرين من رجال الدين وأبناءالبلد فاتصلوا بالقائد طارق بن زياد عندما نزلت العرب باسبانيا ليعينهم على التخلص من لوذريق واسترجاع العرش فبعثوا (يوليان) حاكم سبتة الذي وصل إلى المسلمين ، وكان تدخله إلى جانب العرب الذين كانوا ينتظرون الفرحة لفتح الأندلس فوفر عليهم الانتظار لأنه أمن لهم العبور من (سبتة) ووضع تحت تصرفهم سفناً تنقلهم إلى البر الأسباني ووصلهم بحلفاء في الداخل وأدلاء لطرق المدن وفتحها ، والروايات العربية كلها تشيد بالدور الذي لعبه يوليان في الفتح ، وفي الوقف ذاته نجد كبار المؤرخين من الإسبان ينكرون وجوده لأنهم يستبعدون ان يُقدِم مسيحي هذه المساعدة للعرب المسلمين و تجمع الروايات الإسلامية والمسيحية على أن يوليان كان يقوم بدوره الفعّال بدافع الانتقام الشخصي من لوذريق الذي اعتدى على ابن يوليان و زوجته لذلك انتقم لنفسه بدعوة العرب ومساعدتهم .

في الفتح العربي : فتح الأندلس

انطلق المسلمون في فتوحاتهم لنشر الدعوة الإسلامية منذ القرن الأول الهجري(السابع الميلادي) ، وقد امتد هذا الفتح العظيم مسافات بعيدة ، من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي وكان فتح بلاد المغرب مقدمة لتلك الفتوحات الذي استغرق نحو سبعين سنة لذلك تطلع العرب إلى فتح بلاد الأندلس منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان إذ خرج عقبة بن نافع على رأس جيش من المسلمين سنة ٢١هـ – ٦٤٢م وانطلق إلى شمالي أفريقيا وأسس مدينة القيروان ،

وأخذ يتوغل في المسير حتى وصل إلى المحيط الأطلسي ، وفي عهد عبد الملك بن مروان ولي أفريقية موسى بن نصير سنة ٨٢هـ وسار إلى طنجة ثم أرسل طارق بن زياد لفتح بلاد الأندلس فاخترق بحر الزقاق ، ونزل على صخرة هناك ، سميت فيما بعد بجبل طارق ، وما زال بالقوط يحاربهم حتى هزمهم وقتل ملكهم لذريق الملقب برودريك وبذلك خضعت البلاد للعرب ...

ولما ثبتت قدم الإسلام في الأندلس نزح إليها العرب من كل قبيلة وهاجر إليها كثير من أهل البلاد الإسلامية واختلطوا بسكان البلاد الأصليين .... وتولى حكم البلاد بعد الفتح أُمراء يحكمونها باسم الخلفاء الأمويين ثم تمكن عبد الرحمن الداخل من دخول الأندلس سنة ١٣٨هـ - ٧٥٧م واستتب له الأمر فيها سنة ١٤١هـ - ٧٦٠م فأسس دولة بني

أمية (واتخذ قرطبة عاصمة لها ، وظل الحكم لها قرابة ٣٨٠ سنة وكان عصرها أزهى العصور في الحضارة الإسلامية بالأندلس * ثم انقسمت البلاد إلى إمارات سمي حكامها بملوك الطوائف كابن عباد في أشبيلية وابن الافطس في بطليوس وذو النون في طليطلة ثم اضطرب أمرهم مرة أخرى ولحقهم الوهن بسبب انقسامهم فتقدم المرابطون من شمالي أفريقية ونازعوهم السلطان ، واستمرت النزاعات السياسية على السلطة ، وفساد النظام ، فاشتدت عند ذاك هجمات الفرنجة عليهم حتى ضعف حكمهم وتقوض ، وسقطت المدن الواحدة تلو الأخرى وآخرها غرناطة التي سقطت سنة ٨٩٨ هـ /١٤٩٢ م وكانت آخر معقل من معاقل الإسلام في الأندلس .

لذلك قسم المؤرخون هذه الأحداث إلى عصور هي كالآتي :

ت	العصر	فترة العصر	كلمة موجزة عن العصر
١	عصر الولاة	٩٢ – ١٣٨ هـ ٧١١ – ٧٥٥م	بداية الدولة الأندلسية على يد طارق بن زياد بالتعاون مع موسى بن نصير ، كان الوالي على الأندلس يعين من قبل الخليفة الأموي للمسلمين .
٢	الدولة الأموية بالأندلس (عصر الامارة)	١٣٨ – ٤٢٢ هـ ٧٥٦ – ١٠٣١ م	إعتباراً من هذا العصر لم يعد لخليفة المسلمين سلطان على تعيين الولاة ، وإن كانوا يتبعون دولة الخلافة الإسلامية بالأسم فقط .
٣	عصر ملوك الطوائف	٤٢٢ – ٤٨٤ هـ ١٠٣١ – ١٠٩٢ م	ملوك الطوائف يحكمون الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية ، انقسمت الأندلس الى ٢٢ دويلة .
٤	المرابطون بالأندلس	٤٨٤ – ٥٤٠ هـ ١٠٩٢ – ١١٤٦ م	أزال يوسف بن تاشفين حكم ملوك الطوائف ، قام بتوحيد الدولة الأندلسية من جديد ، أنتصر على الصليبيين في معركة الذلاقة .
٥	الموحدون بالأندلس	٥٤١ – ٦٣٣ هـ ١١٤٧ – ١٢٣٦ م	تنسب الى محمد بن تومرت ، أسقط تلاميذه دولة المرابطين ، أنتصروا على الصليبيين في معركة الأراك ، هزمهم الصليبيين في معركة العقاب التي مهدت للسقوط الأخير
٦	دولة بني الأحمر– تكوين مملكة غرناطة	٦٣٦ – ٨٩٧ هـ ١٢٣٩ – ١٤٩٢ م	انحصر الوجود الأسلامي في جنوب أسبانيا فقط وعاصمتها غرناطة .

ثالثاً : المجتمع الأندلسسي ومكوناته :

انتشر الإسلام بسرعة فائقة بين سكان الجزيرة لأنهم وجدوه طريق الحرية والكرامة والعدالة ، وقد تأثر العرب بهذا الاختلاط وبالبيئة وما فيها من خيرات وجمال ونشأ جيل جديد يجمع بين الصفات العقلية العربية والغربية ، وله في تفكيره وخياله ومزاجه الفني صفات خاصة ، وطابع متميز ، منهم :

١. العرب : ازدادت أعدادهم بفعل الاستيطان والتولد وبفعل الهجرة الكبيرة بعد فتح الأندلس .

٢. البربر : كان عددهم أكثر من العرب ، اجتهدوا في التعرب ودراسة الإسلام والتفقه فيه .

٣.الموالي : منهم من دخل إبان الفتح ومنهم من دخل بعد الفتح ومنهم من كان في ولاء البيت الأموي من أهل البلاد.

٤.المولدون : وُجِدوا من تزاوج العرب والبربر ومن الزواج من الأسبانيات والصقالبة

٥. أهل الذمة : الذين بقوا على دينهم ، وكانوا يشعرون بأن العرب والبربر دخلاء عليهم لكن الإسلا م ضمن حقوقهم وحريتهم مقابل الجزية والخراج .

٦. الأيبيريون : وهم السكان الأصليون جنس من البربر القديم .

٧. ا لصقالبة : وهم الذين يؤتى بهم أطفالاً من دول أوربية فينشؤون تنشئة إسلامية وكلمة صقلب كلمة فرنسية قديمة معناها عبد أو رقيق .

هذه الأقسام امتزجت مع بعضها امتزاجاً تسرب إلى عقولهم ودمائهم فلم يكن بينهم فروق بل كانت نزعاتهم متشابهة موحدة ساعد في تكوينها طبيعة غنية حافلة بشتى المناظر وصور الجمال ، على أن الشخصية الأندلسية التي عاشت في ظل هذه الظروف ، شخصية قد عانت نوعاً من القلق والشعور بعدم الأمن الناجم عن طبيعة البلاد المقسمة المتباينة ، لذلك فقد عوضت الطبيعة نفسها هذا الأمر وكان لها عظيم الأثر في نفوس الأندلسيين وطباعهم ، ثم في فنونهم و آدابهم ، فانعكس جمال الطبيعة وخصوبتها على خيالهم ، ورقة أحاسيسهم ، فضلاً عن جمال الملامح الخَلقية ووسامتها فمن سماتهم البياض المشرب بحمرة ، وقد يميل إلى السمرة في الجنوب ، ثم القوام المعتدل الطول ، والشعر الذي يغلب عليه السواد ، أو الأشقر ، وأما من النواحي الخُلقية ، فكانت محافظة على الأصول الأخلاقية العامة، لكن مع ميل إلى التحرر والانطلاق ، وبغض للتزمت ، وأيضاً حبهم الشديد للغناء وشغفهم به ، وهذا يدلّ على رقة عواطفهم وأحاسيسهم ، وأيضا حبهم الشديد للنظافة ، والتأنق ، وميلهم الواضح إلى الزينة .

رابعاً : حالة اللغة في الأندلس، ومراحل انتشار اللغة العربية فيها :

بعد أن اختلط العرب بالإسبان ، ظهر جيل مولد بسبب الاختلاط ، إذ أصبحت الأندلس مزيجاً من الشعوب من العرب والبربر والموالي ، والمولدين ، وأهل الذمة والأيبيريين ، فضلاً عن الصقالبة كما أسلفنا ، في المجتمع الأندلسي ومكوناته ، وعلى الرغم من هذا الامتزاج فقد استطاعت العربية أن تشق طريقها وأن تتفوق على اللغات الأخرى ، ولاغرو في ذلك إذ للناحيتين السياسية والدينية أثرهما الكبير في شيوعها واحتفاظها بقوتها ، فضلاً عن نشوء المعجمات اللغوية التي حافظت على هذه اللغة وكانت لها كالسياج الذي يقيها شر التلحين ، والعناية البالغة في أسلوب التعليم الذي اتبعه أهل القرآن الكريم في التعليم والالتزام بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط ، والحث على التأليف

اللغوي والمعجمي على يد طبقة من النحويين والمؤدبين ، وتنوع حركة التأليف عامة فاشتملت على نواحي عديدة في العلم ومختلف ميادينه ، وعندما استقرت الأحوال في قرطبة تغير شأن الحياة وبدأت عيون الأدب والفنون والعلوم والشعر تتفجر فقد بدأ الاهتمام بعلوم الدين ثم تبعه الاهتمام بعلوم أخرى ، وقد استخدموا وسائل وطرائق في تأسيس حركة علمية جديدة منها :

- استدعاء عدد من علماء المشرق إلى الأندلسس منهم :

أبو علي القالي صاحب الأمالي الذي وجد ترحاباً من الخليفة الناصر الذي استقبله شخصياً عند بوابة المدينة وكذلك أبو العلاء بن الحسين صاعد البغدادي عالم اللغة والأدب والأخبار و صاحب (الفصوص) ثم نشأت طائفة يؤلفون الكتب منهم ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد .

-رحيل بعض الأندلسيين إلى بلاد المشرق ليتعرفوا علومهم و آدابهم ويتبحروا بها ثم العودة إلى الأندلس لنشر ما حصّلوه من علوم بين أهل البلاد منهم : يحيى بن يحيى الليثي الذي رحل إلى المدينة وتتلمذ للإمام مالك ، وكذلك ابن حزم الأندلسي وابن سيده

- جمع الكتب وإقامة المكتبات العامة مما كان له أثر كبير في تنشيط الحركة الفكرية فيها.

- **بنية القصيدة الموروثة التي توارثها الشعراء وطوروها على مر العصور:**

مفهوم البناء :

طريقة الشعراء الأوائل في نظم الشعر ، فقد حرص الشعراء في كثير من مطولاتهم على التقيّد بالأصول التقليدية التي كان يقوم عليها نظام القصيدة آنذاك ، وذلك من حيث الشكل ، والمضمون والأسلوب، فكانت القصيدة عندهم بشكل عام تتكون من أربعة أقسام رئيسة المقدمة أو الافتتاح تليها الرحلة ثم الغرض الرئيس فالخاتمة .

المقدمة : إما أن تكون :

١. **طللية** : يقف الشاعر باكياً على أطلال الديار الخالية ويصف بقايا وآثارها الدارسة بفعل الزمن ، مستذكراً ذكريات الماضي فيها و كيف أصبحت صماء ومرتعاً للوحوش تذروها الرياح .

٢.أو **خمرية**

٣. أو **غزلية**

٤.أو **فروسية**

٥. أو **الشيب**

٦. أو **الطبيعة**

وهذه المقدمات الأخيرة تقوم ها يقوم به الطلل من تهيئة الجو النفسي الملائم للدخول في الغرض الرئيس

الرحلة :

١. **رحلة الظعن** : وتكون جزءاً مكملاً للافتتاح والظعنُ هي الإبل من فوقها هوادج النساء ، وهو مشهد رحيل جماعي عند الفجر وتكون فيه المرأة إلى كان يحبها الشاعر وفارقته فيتابعها بنظره وهي تنتقل مع قومها من مكان لآخر في حركة ومنظر يتسم بالجمال .

٢.**رحلة الشاعر** : وتكون على ناقة قوية لها صفات أسطورية دلالة على صراع الشاعر مع واقعه ومعاناته ومواجهته الأهوال .

وأما **الموضوع** فقد يكون مديحاً ، أو فخراً ، أو هجاء، أو رثاء ، أو عتاباً، أو اعتذاراً ، ويتخلله بعض أبيات الحكمة لا سيما في **خاتمة القصيدة** .

ملاحظة :

١.أصبح هذا البناء التقليدي أسلوباً موروثاً في القصيدة العربية على مر العصور.

٢.ليس بالضرورة أن يطرد هذا البناء في جميع القصائد إنما هناك من يحذف ويبدأ بالغرض مباشرة وهناك من يطيل أو يختصر .

٣.نظم شعراء الأندلس في الفنون التقليدية ، كالمديح ، والغزل ، والرثاء ، والزهد وللهو والمجون وغيرها .

ومن الأغراض الشعرية التقليدية إلى طرقها الأندلسيون :

١ -**المديح** : اتخذه بعض الشعراء وسيلة للتكسب ، فصاروا يمدحون السادة والعظماء ، والوجهاء، والموسرين ، واتخذه البعض وسيلة للتعبير عن مدى إعجابهم الحقيقي بمدوحيهم إيماناً من الشاعر بأحقية الممدوح بهذا المدح ، وقد وضع النقاد شروطاً لأسلوب المديح ، إذ يلزم في أسلوبه أن يكون جزلاً وفي ألفاظه أن تكون منتقاة .

لذلك عنوا بتنقيح قصائدهم ، وتهذيب أشعارهم ، والاهتمام بها اهتماماً بالغاً ، وقد سلك فيه بعض الشعراء سنن الأقدمين بالبكاء على الأحباب ، والتغزل ثم وصف الرحلة إلى الممدوح ، أو وصف الناقة ومشاق الطريق ، كقصيدة ابن الحداد الوادي التي بدأها بالغزل قائلاً :

عج بالحمى حيث الغِياضُ الغينُ ... فعسى تعنّ لنا مهاةُ العِينُ

والرّوضُ ما اشنملت عليه سهولُهُ ... لا ما أرته أباطحٌ وحزونُ

قصرٌ تبيّنتِ القصورُ قصورَها ... عنه وفضلُ الأفضلين يَبينُ

هو جنّةُ الدنيا تبوّأ ظلّها ... مَلِكٌ تملَّكهُ التُّقى والدينُ

وبعض شعراء الأندلس لم ينهجوا في قصائدهم النهج السابق من التمهيد بالغزل ، بل بنوا قصائدهم كلها من بدئها حتى نهايتها على المديح من ذلك قصيدة أبي بكر عبادة بن ماء السماء مدح بها القاسم بن داود بدأها بالمدح مباشرة بقوله:

مـا ضـيّع الله ملكـاً أنـتَ راعيـه ... ولا أبـاح ذمـاراً أنـت حاميـه

لله درّك مـن مـولى عوارفـه ... لم تبـقِ في الأرض إلا مـن يواليـه

وبعض شعراء الأندلس ، بدؤوا قصائد مدحهم بوصف الطبيعة وفي مقدمتهم ابن خفاجة وصاف

الأ ندلس الأول ، من ذلك قصيدته إلى بعثها لقاضي القضاة "أبي أمية " ، إذ بدأها بوصف الطبيعة الباسمة التي هام بجمالها قائلاً:

هبّت رواحاً وهي نفّاحة فطاب ريحاً نشرُ ذاكَ الرواحْ
أفصحِ غرّيدٌ بهامطربٌ ينشر من طِرسٍ قدامى جناح

كما اشتمل فن المديح عندهم على أغراض أخرى ، كالوصف والفخر ، والبطولة ، واالحكمة ، وكانت تدور معاني القصائد عامة على دلالات الشجاعة ، والكرم ، والجود ، والسخاء ، والنجدة ، والدفاع عن الدين والوطن ، وباختيار ألفاظ جزلة ، وعبارات قوية ، مصحوبة بصور مستقاة من البيئة الأندلسية وطبيعتها الخلابة ، وكانت قصائد المديح تنظم غالباً ضمن الدوائر العروضية الأولى من البحور الطويلة إلى تناسب غرض المديح الذي غالباً ما يتطلب تعظيم المُثُل العليا وتمجيد القيم الرفيعة بنفس شعري طويل مقتدر .

٢ –الغزل : سار الغزل في الأندلس باتجاهين مختلفين :

–**الاتجاه الأول** :

الغزل العفيف : الذي اتخذه بعض الشعراء طريقاً إلى التعبد بالجمال والبعد عن طريق الغواية إلى طريق العفاف ، وصون النفس من أحاديث الفجور، ففي هذا النوع من الغزل يتذلل العاشق لمعشوقه ويتحدث فيه عن آلامه ومعاناته الذاتية وأحاسيسه المرهفة بعيداً عن المفاتن الجسدية والمغريات الحسية كقول ابن فرج الجياني:

و طائـعِة الوصـال صددتُ عنـها و مـا الشِـيطانُ فيـها بالمُطـاع
بـدت باللـيلِ سافـرةً فَبـاتت دياجـي الليـل سافـرةَ القـناع
فملّكتُ الـهوى جِـمحات شِـوقي لأجري في العفـاف على طبـاعي
وبـتّ بهـا مبيـتَ الطفـل يظـما فيمنعـه الفطـام عـن الرضـاع

– **الاتجاه الثاني** :

الغزل الحسي الذي تتضح فيه النظرة الحسية فيتغزل الشاعر فيه غزلاً بعيداً عن خلجات النفس ، فيعمد فيه الشاعر المتغزل إلى إبراز المفاتن الجسدية للمرأة ، من ذلك قول الأعمى التطيلي :

هـل تـذكرين لياليـنا بتنا بهـا لا أنـتِ باخلـةٌ ولا أنـا أمنـعُ

وقول ابن خفاجة :

تسـافر كلتـا راحـتـيّ بجسـمه فطـوراً إلى خصـر وطـوراً إلى نهـدِ
فتهبط من كشحيه كف تهامة وتصعد من نهديه أخرى إلى نجدِ

سماته الفنية :

واتخذ بعض شعراء الأندلس الغزل كمقدمة لقصائدهم في المديح والفخر وغيرهما من فنون الشعر الأخرى ، وهذا يغلب عليه التقليد .

وقد امتاز الغزل الأندلسي بالرقة ، والأناقة ، والمزج بالطبيعة الفتانة الساحرة ، وقد يبدو في بعضه فتور العاطفة ، وضعف النبض ، إلا أن بعضه كغزليات ابن زيدون – على سبيل المثال لا الحصر – نلحظ فيه قوةَ العاطفة وتوقدَها وصدقَ التعبير مصحوباً بصور شعرية مؤثرة فنراه قائلاً :

إنّي ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفقُ طلقٌ ووجهُ الأرض قد راقا
وللنسيمِ اعتلالٌ في أصائله كأنّه رقّ لي فاعتلّ إشفاقا

فنلحظ صياغة المعاني الغزلية بألفاظ عذبة حلوة عبرت عن أحاسيسه الجياشة و تجربته الواقعية برنات من الحزن ونغمات موسيقية باكية عانقت الطبيعة وتغنت معها ، كما يلاحظ ولعُ الشعراء بفنون البديع وتوظيف التشبيه والاستعارة والكناية ، والجناس والطباق وكل ما تتطلبه الصورة أو السياق .

٣ – الرثاء :

احتذى فيه شعراء الأندلس أجدادهم المشارقة مع شيء من التجديد ، وغالباً ما يكون هذا الفن صادقاً معبراً عن توهج العاطفة وحرارة الأسى لفقد الأحبة ، وقد يكون فاتراً إن كان عملاً رسمياً يسجل فيه الشاعر موقفاً بموت أحد الملوك أو القادة أو الأشراف ،وتزخر دواوين معظم شعراء الأندلس بقصائد الرثاء ، فيكثر الشاعر من ذكر الخصال الحميدة والمناقب الكريمة والأفعال المشكورة والأعمال الصالحة ، من ذلك رثاء ابن خفاجة لابن أختٍ له قائلاً :

أَرَقتُ أَكُفَّ الدمعِ طَوراً وأَسفَح وأَنضحُ خَدّي تارة ثمَّ أَمسحُ
ودونك طماحٌ من الماء باردٌ يُعَبّ ومُغبَرٌّ من البيد أفيحُ
وإني إذا ماالليلُ جاء بفحمةٍ لأوري زِنادَ الهمّ فيها فأقدحُ
وألقى بياض الليلِ يسودّ وحشةً فأحسبني أمسي على حينِ أصبحُ

وشاع في الأندلس رثاء الزوجات ، وعبر الأعمى التطيلي عن حزنه العميق لفقدان زوجته (آمنة) ، بأسلوب مؤثر جداً قائلاً :

أآمَنُ إن أجزعْ عليكِ فإنني رُزِئتكِ أحلى من شبابي ومن وفري
برغميْ خُلّيَ بين جسمك والثرى وإن كنت لا أخشى الترابَ على التبِرِ
هنيئاً لقبرٍ ضمّ جسمكِ إنّه مقرّ الحياة أو هالةُ القمر البِدِر

إن هذا النوع من الرثاء يعده معظم النقاد من أصناف التراجم الذاتية القصيرة التي قد يتحرج بعض الناس من البوح بأسرارها ، ولكن عندما يطلق الشاعر لنفسه ولمشاعره العنان فإنه يبوح بمكنون أسراره متحدثاً عن جمال عِشرة الزوجة المفقودة ، وعن حزنه وتفجّعه لفقدها وضياعه بعدها ، ولعلّ من أسباب كثرة هذا الغرض في الأندلس هو البيئة الأندلسية ذاتها التي أعطت أهمية للمرأة ومكانتِها وحقِها ودورِها الفاعل والمهم في الحياة بصورة عامة ، وحياة الرجل خاصة ، فالحياة القلقة التي يشوبها عدم الاستقرار التي عاشها الفرد الأندلسي إبان الفتوحات والحروب المتواصلة ثم الهجرة أو التنقل ، الأمر الذي جعله يشعر بالتشتت والضياع وقلة الطمأنينة فلم يكن يعينه في تلك الظروف القاسية على تحمّل آلامها ومعاناتها ، والوقوف بصمود وثبات ضد هذه التيارات سوى المرأة ، فكان الرجل يجد عند زوجته السكينة والأمان ، ووجه الحياة المشرق ، لا سيما وهي تهون عليه مشقاتِها وتعينه على التحمل والصبر بغية التغلب على مرّ الحياة وتقلبات الدهر ، لنستمع لابن حمديس الصقلي الذي فقد زوجته(جوهرة) غرقاً في البحر ، فبكاها بكاءً مرّاً مزجه بالغزل قائلاً :

أيا رشاقَةَ غصن البان ما هصركْ ... ويا تآلفَ نظمِ الشمل ما نثركْ؟
ويا شؤوني، وشأني كله عجبٌ ... فضّي يواقيت دمعي واحبسي دركْ
لا صبرَ عنك وكيف الصبرُ عنك وقد ... طواكِ عن عيني الموجُ الذي نشركْ

أمّا الرثاء الذي يأتي كما وصفه النقاد لقضاء الواجب فحسب ، فلا نلحظ تلك العواطف المشبوبة والقلوب المتفجعة حزناُ على المفقود ، فيأتي متكلفاً ، من ذلك عزاء الأعمى التطيلي لبني مرتين قائلاً :

عزاء بني مرتين ما أحسب الأسى ... لذي اللبّ إلا آسياً أو مؤاسيا
أبَت هذه الأيام إلا طباعها ... وإن هي دارتكم هوى أو تداهيا
وقد أمكنتكم وهي خَوْنٌ غوادرٌ ... فإن شئتم لم تتركوها كما هيا

٤ – الزهد :

انتشر الزهد في بلاد الأندلس انتشارا كبيراً نظراً للظروف والتقلبات السياسية ، والاضطرابات والصراعات والآثار الناجمة عنها والمؤثرة في شخصية الفرد الأندلسي ، ففي ظلّ هذه الاضطرابات السياسية والدينية والفكرية ، احتاج الأندلسيون إلى من ينير لهم هذه الجوانب المظلمة في الحياة الأندلسية، فالكثير من الناس زهدوا في الحياة فابتعدوا عن الدنيا وملذاتها لكسب ثواب الآخرة ، فضلاً عن أن معظم شعرا الأندلس كانوا من المثقفين والمتفقهين بأصول الدين ، مستفيدين من مؤلفات الزهد الوافدة إلى الأندلس من كلّ حدب وصوب .

ولنستمع لابن العسّال شاعر الزهد ، وهو يحدثنا عن قناعته الكاملة بأن الدنيا ليست دار ثبوت ، وهي زائلة ، تقابلها الآخرة ، دار النعيم والخلود ، قائلاً :

انظر الدنيا فإن أبصرتها شيئا يدومُ

فاغـــدُ منهـــا في أمـــانٍ إن يُســـاعدك النعـــيم
وإذا أبـصـــــرتـــــها منـــــك على كـــــره تـــهـــــيم
فاسلُ عنها واطّرحـهـــا وارتحـلْ حيـث تقـــوم

وقد دارت معاني الزهد حول الوعظ والإرشاد ، وتوعية النفوس بالابتعاد عن الدنيا وملذاتها التي تجرّ الإنسان نحو العذاب ، وحثوا على التمسك بالله عز وجلّ ومخافتِه ورجاءِ مغفرته ، والتماسِ عفوه ، وهاهو ابن الفرضي يعظنا زاهداً بقوله :

أَسيرُ الخطايـا عنـد بابكَ واقـفٌ على وجـلٍ ممّـا بـه أَنتَ عـارفُ
يخـافُ ذنوبـاً لم ينـب عنـك غيبُهـا ويرجـــوكَ فيهـــا فهـــو راجٍ وخائفُ
فيـا سـيدي لا تُخزنـــي في صحيفتي إذا نُشِرت يومَ الحساب الصحائفُ
وكـــن مؤنسي في ظلمة القبر عنـــدما يصـــدّ ذوو القربـى ويجفـــو الموالـــفُ
لـئن ضـاقَ عـني عفـوكَ الواسـع الذي أُرجـــى لإســـرافي فـــإني لَتـــالف

٥- الهجاء :

وُصِف الهجاء الأندلسي في معظمه بأنه هجاءٌ " لا يتعرض للأنساب ، مخالفاً بذلك ما نهج عليه شعراء الهجاء في المشرق ، كما تغلب عليه خفة الروح والنكتة اللاذعة ، وكان يميل إلى العفة وعدم الإغراق في الفُحش واستعمال بذيء الألفاظ ، وكان بمنأىً عن ذكر العورات ، مخالفاً ما درج عليه شعراء العصر العباسي وكان الشعراء يكتفون بالتوبيخ والتعبير ، من ذلك هجاء خلف بن فرج الألبيري والملقب بالسُّميسر لبعض ملوك الطوائف ، حين أهملوا شؤون الناس وتهاونوا في الدفاع عن البلاد ، قائلاً :

نـــاد الملـــوكَ وقـل لهـــم مـــاذا الذي أحـــدثتمُ
أســـــلمتم الإســـــلام في أســـر العـــدا وقعـــدتم
وجـــب القيـــام علـــيكم إذ بالنصـــــارى قمـــــتم
لا تنكـــروا شـــقَّ العصـــا فعصـــا الـــنبيّ شـــققتم

و يبدو أن البيئة المتحضرة التي عاش فيها الشعراء كان لها عظيم الأثر في تأخر هذا الغرض عن نظيره عند المشارقة فقد كان لسيطرة الفقهاء على مقاليد الأمور لا سيما عند المرابطين الأثر في تراجع الهجاء في الأندلس ، فالشعراء يخافون على أنفسهم من بطش الفقهاء فضلاً عن أن الدين له موقف صريح وحازم ممن ينهشون أعراض الناس من الشعراء .

٦- **اللهو والمجون :**

نشط هذا الغرض حين انفرط عقد الخلافة وجاء عصر الطوائف وشاع التحلل في طبقات المجتمع الأندلسي ، واضطربت مفاهيمه فمال البعض إلى اللهو وأقبلوا على المتع الحسية من شراب ورقص واقتناء لحسان الجواري ، وأقبل الناس على شرب الخمور ، ودخوت الحانات والأديرة ، فنشط شعر اللهو والمجون تبعاً لذلك ، من ذلك قول عامر بن شهيد :

ولــربّ حــانٍ قــد شممــتُ بــديره خمــرَ الصّــبا مزجت بصــرف عصــيره
في فتيــة جعلــوا الســرور شــعارهم متصـــــاغرين تخشـــــفاً لكـــــبيره
والقــسُّ ممّــا شــاء طــول مقامنــا يـــــدعو بعـــــود حولنـــــا بزبـــــوره
يتنـــاول الظرفـــاء فيـــه وشـــربهم لســـــلافه والأكـــلُ مـــــن خنزيـــــره

هكذا نظم الأندلسيون في أغراض شتى ، منها الفنون أو الأغراض التقليدية المذكورة سالفاً ، وأغراض مستحدثة سنتطرق اليها في مباحث مفصلة لاحقة إن شاء الله تعإلى .....